حضارة بلاد الرافدين

إن على الباحث في مجال التاريخ الإحاطة بمعارف متعددة في مجال الكتابة التاريخية وأن يكون ملما بالسياسة والمعلومات الجغرافية التي تشكل أرضية الأحداث والواقع الاقتصادي، فضلا عن الأحداث الكبرى التي تتسبب في الأحداث اللاحقة، ومطلعا على طبائع البشر وأنظمتهم، وممّا لا شك فيه أن الإطار الجغرافي يؤثر بدوره في طبيعة تاريخ الشعوب من الناحية السياسية والاجتماعية، من خلال توجيهه في نمط عمرانه وطرق معيشته ويحدد طباعه وسلوكه، وهذا ما ينطبق تماما على بلاد الرافدين المتكيفة منذ البدء بإطارها الجغرافي، وبالتالي من الأفضل أن نمهد قبل البدء في عرض أحداث تاريخ ما بين النهرين بدراسة جغرافية لمسرح الأحداث الذي شهد بواكر حضارة الرافدين القديمة، وبالتالي تعتبر الخلفية الجغرافية وبالتحديد في العراق القديم واكتشاف هذا التنوع الجغرافي والتضاريسي الذي ساهم بنسبة فعالة في ظهور أولى القرى البدائية التي سرعان ما تطورت إلى مدن كبرى.

1- الموقع وأصل التسمية:

يعد العراق من بين المناطق الأكثر حظًا وغنى في الشرق الأدنى، حيث كان مركزا هاما لالتقاء عوامل التقدم والتطور بسبب الموقع الجغرافي الممتاز وكذا خصائصه الطبيعية التي ساهمت في هذا الثراء منذ البداية، باعتباره يقع في الجزء الشمالي الشرقي من الوطن العربي في جنوب غربي آسيا أي من جبال كردستان شمالا إلى الخليج العربي، وهو بذلك يمتد من الخليج العربي والجزيرة العربية جنوبا حتى جبال أرمينيا وزاغروس شمالا، ومن البوادي السورية غربا إلى جبال إيران شرقا ما جعله يقع ضمن منطقة التقاء قارات العالم القديم إفريقيا وآسيا وأوروبا

ذكر المنطقة في المصادر الكلاسيكية القديمة جاء بإسهاب كبير، حيث يشير **سترابون** إلى أن :" البلاد التي تحاذي بلاد فارس، هي بلاد أشور"، ويفهم من هذا الاسم بلاد بابل وجزء كبير من المنطقة المجاورة، التي تضم بدورها كل من إقليم أشور ومركزه نينوى، جبال زاغروس... وأخيرا الضفة الأخرى لنهر الفرات، هذا الإقليم الواسع الذي يقسم بين العرب والسورين إلى غاية حدود سليسيا، فينيقيا، فلسطين وسواحل مصر والخليج العربي"، أما بطليموس فيقول أن :"بلاد ما بين النهرين من الشمال تنتهي بذلك الجزء من أرمينيا الكبرى، ومن الغرب بذلك الجزء من الفرات، ومن الشرق بالجزء من دجلة القريب من بلاد أشور، ومن الجنوب بما تبقى من نهر الفرات".

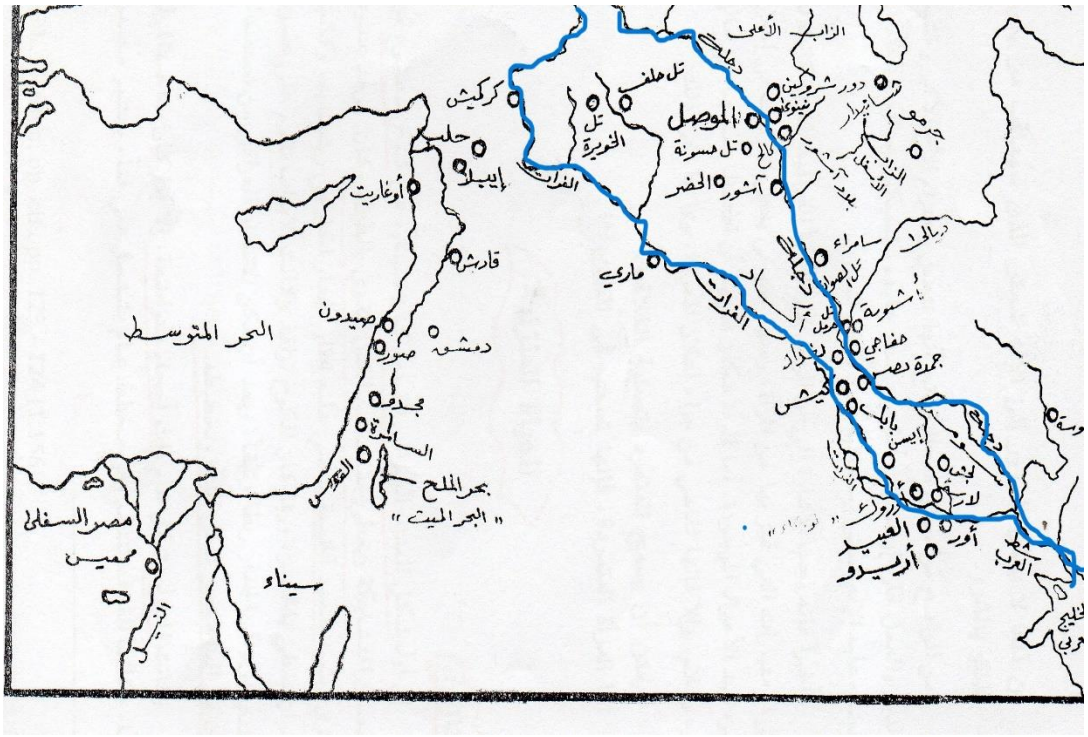

كما وصفت بلاد ما بين النهرين بالمنطقة الجغرافية المثلثة تقريبا، وتبلغ مساحتها حوالي مئة وثلاثين ألف ميل مربع –208 ألف كلم^2– تمتد من حلب إلى بحيرة أورمية وحتى مدخل شط العرب، وقد سمحت هذه المؤهلات الجغرافية الممتازة بنشوء حضارة عريقة في هذا المثلث الجغرافي والتي بلغت أوجها في عهد حكام سومر، وأكد وبابل وأشور، حيث يقع بين خطي الطول 38 و48 درجة شرقا تقريبا، وخطي العرض 30 و37,5 درجة شمالا.

أما عن أصل اشتقاق هذه تسمية "بلاد ما بين النهرين، العراق" وبداية استخدامها لا زال موضع جدل الباحثين المتخصصين في ذلك:

ولعل أقدم التسميات التي أطلقت على المنطقة الواقعة في أقصى جنوبي العراق هو مصطلح "بلاد سومر/ مات شومري" منذ أواخر عصور فجر السلالات أي في حدود منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، اي "سومر" بالأكادية، أما في اللغة السومرية فكانت "Ki-en-gi(r)" التي تعني أرضا زراعية أو بلاد القصب، ثم ظهر مصطلح آخر "بلاد أكد" في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد ليدل على القسم الأوسط من العراق، ومنذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد استخدام مصطلح "بابل" للدلالة على بلاد سومر وأكد، وبذلك أصبحت تعني هذه التسمية القسم الجنوبي والأوسط من العراق، أما الجزء الشمالي فسمي "بلاد أشور" نسبة إلى العاصمة والإله أشور.

كما أطلق الإغريق على هذه المنطقة تسمية "Mésopotamia" ميزوبوتاميا والذي اشتق من المصطلح الجغرافي القديم "Mésopotamios" ويترجمونه ببلاد ما بين النهرين –دجلة والفرات–، حيث وردت عند كل من المؤرخ بوليبيوس (ق 2 ق.م) وسترابون (ق1 ق.م) على الجزء المحصور بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود

العراق تقريبا، غير أن التسمية يقصد بها –عند الاغريق– مواطن حضارة ما بين النهرين القديمة، التي لم تقتصر فقط على ما بين النهرين، وإنما امتدت إلى ما حولهما أيضا، وهو ما تفسره أقدم المواطن الأثرية مثل: العبيد وأريدو و أور التي قامت غرب الفرات وليس فيما بينه وبين الدجلة، إضافة إلى قيام إشنونا (تل أسمر) شرق الدجلة وليس فيما بينه وبين الفرات، أدرك المؤرخون قصور هذا اللفظ أي ميزوبوتاميا لهذا أضاف بعضهم لفظ بارابوتاميا « Parapotamia » أي ما وراء النهرين أو ما حولهما.

وورد الاسم أيضا في التوراة –سفر التكوين: "وأخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وفي يده من كل خير مولاه، وقام ومضى إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور»، إذ وردت في العهد القديم باسم «أرام نهاريم» بمعنى «أرام النهرين» أي بلاد «ما بين النهرين»، هذه التسمية التي تمت ترجمتها إلى اليونانية على هيئة «ميزوبوتاميا».

بينما يشير الباحث فلكتشتاين إلى أن مصطلح «ميزوبوتاميا» قد يعود بأصوله الأولى إلى تسميات عراقية قديمة بذكر تسميات مشابهة في النصوص المسمارية القديمة ومنها «بيريت ناريم» أو «مات بيرتيم» أو «بيرتيم» وكلها تعني بلاد ما بين النهرين.

في حين استخدم الكتاب العرب تسمية في العصور الحديثة «بلاد الرافدين» عند الحديث عن العراق القديم، ورغم ذلك فليس هناك اتفاق على تسمية محددة لأرض الرافدين، فالاسم الحديث لها هو مصطلح «العراق» الذي يرجح على أنها كلمة فارسية تعني السواد أ والسهل أو البلاد السفلى وأنها وكلمة إيران ذات أصل واحد، وإن ذهب بعض المفسرين العرب إلى أن كلمة العراق تعني "الجرف" أو الساحل أو الشاطئ.

وهناك من أرجعها لأصل قديم "سومري" أو "سامي" مشتق من كلمة "أوروك" بمعنى المستوطن، وربما له علاقة مع الاسم الذي أطلق على مدينة الوركاء، كما أطلق عليها كذلك أرض السواد، بسبب كثرة المزروعات والأراضي السوداء المستغلة في الزراعة، ولقد أسهم نهر الدجلة والفرات في طبيعة تكوين هذه المنطقة وتزويدها بالمياه اللازمة للأعمال الزراعية، كما استخدم مصطلح "الجزيرة" للدلالة على الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات حتى حدود بغداد.

وفي القرن الثاني عشر قبل الميلاد وردت تسمية على هيئة "اريقا" للدلالة على إقليم في وسط العراق ثم حرفت إلى "ايراك" وعربت إلى عراق أو "العراق" وبعدها اتسع مدلولها ليشمل القسمين الأوسط والشمالي أيضا بعدما كان القسم الجنوبي فقط، وبالتالي كان معناها "البلاد السفلى"، وقيل أن أصلها عربي ومعناه "شاطئ الماء" وخصَّ به بعضهم شاطئ البحر، وسمي عراقا لقربه من الماء، وقيل سمي به لتواجد عروق الشجر والنخيل.

بينما السكان المحليين فقد أطلقوا على بلادهم تسميات عديدة حسب الفترات التاريخية، فأطلقوا على جنوب العراق في فجر تاريخه تسمية «مات شوميري» التي تعني بلاد سومر، وذلك في اللغة الأكادية، أما في اللغة السومرية فكانت Kie-en-gi (r) والتي تعني أيضا "أرض زراعية" أما بلاد بابل فكان يطلق عليها في اللغة الأكادية تسمية "مات بابل" والتي تعني "بلاد بابل"، والأمر كذلك بالنسبة لآشور التي أطلق عليها "مات أشور".

2/ الخصائص التضاريسية والمناخية:

2-1/ المناخ:

ان بلاد الرافدين تضم عدة نطاقات مناخية متمايزة بين الشمال والجنوب والوسط، ففي المنطقة الوسطى والجنوبية تصل درجة الحرارة في فصل الصيف إلى ما يقرب من 50 درجة مئوية، مع ارتفاع نسبة الرطوبة –رغم تلطيفها من طرف الرياح الشمالية الشرقية القادمة من أعالي زاغروس–، أما في فصل الشتاء فإن درجة الحرارة لا تصل إلى درجة التجمد، ويكون الجو دافئًا ولهذا سمي مناخ هذه المنطقة بالمناخ الصحراوي.

هذا وساد المناخ الانتقالي في المنطقة المتموجة شبه الجبلية (السهوب) أي ما بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي، والتي تراوح معدل سقوط المطر فيها في حدود 20–40 سم سنويا، ولهذا كانت منطقة رعوية بالدرجة الأولى.

أما في المنطقة الشمالية الجبلية فيتميز مناخها بشتاء بارد وثلوج كثيرة والصيف معتدل والأمطار غزيرة حيث يبلغ معدلها ما بين 40 إلى 100 ملم، بينما الثلوج التي تتراكم فوق سفوح الجبال العالية طوال العام، وانخفاض الحرارة إلى درجة الصفر لفترة طويلة من شهور السنة، وفي فصل الصيف لا تزيد عن °35.

وبالتالي نخلص إلى أن هناك اختلاف في درجة الحرارة بين شمال العراق وجنوبه حيث وصلت درجة الحرارة في الجنوب خلال شهر يناير حوالي 11°م، بينما في الشمال تصل إلى حوالي 5°م بسبب وجود المرتفعات التي تحيط منطقة العراق، كما أن المرتفعات تكسوها الثلوج خلال فصل الشتاء، بينما فصلا الخريف والربيع فهما فصلان قصيران يتراوح كل منهما ما بين شهرين أو شهر واحد في جنوب ووسط العراق، بينما الأمطار فتسقط خلال فصول الخريف والشتاء والربيع، إما على شكل رُخات رعدية تدوم لفترة قصيرة أو أمطار إعصارية نتيجة أعاصير البحر المتوسط أو أمطار تصاعدية والتي تنشأ بسبب تبخر المياه وتكاثفها، وهذا النوع يحدث خلال فصل الربيع.

وكان للتنوع المناخي واختلاف التضاريس في العراق، سببا في التنوع النباتي ما بين غابات الجبال وحشائش السهول حيث تزداد كثافة الحشائش كلما اتجهنا من الجنوب إلى الشمال، ومن الغرب إلى الشرق، حيث كانت كل منطقة تتميز بنوع نباتي خاص حسب مؤهلاتها الطبيعية، هذا التنوع الطبيعي الذي ساهم بنسبة كبيرة في ظهور

المدن وتجمع السكان حول ضفاف الأنهار ممهدة بذلك ببروز أولى الإدارات المركزية، فضلا عن تنوع في المحاصيل الزراعية ساهم في النمو الاقتصادي وتحقيق التطور في جميع الميادين وسَدْ حاجيات السكان خاصة بعدما نجحوا في استئناس نسبة كبيرة من الحيوانات التي ثبت وجودها في النصوص القديمة والصور المنقوشة وأنواع عديدة من الأسماك وذوات القشور، وكذا تربية النحل على ضفاف الفرات بغية جمع العسل.

المظاهر التضاريسية: يمكن أن نقسم أرض العراق إلى الأقاليم التضاريسية التالية:

1-**المنطقة الجبلية:** تشغل حوالي خمس مساحة العراق (23270 كلم^2)، وهي تصنع قوسًا في الجزء الشمالي يمتد من الغرب إلى الشرق، ليصل إلى سوريا في الشمال الغربي وتركيا في الشمال وإيران في الشرق، ويتراوح ارتفاعها بين 1000-3600 مترا وصخورها نارية ورسوبية شديدة المقاومة، وهي معرضة لعمليات تعرية بالنظر لشدة انحدارها وكثرة أمطارها.

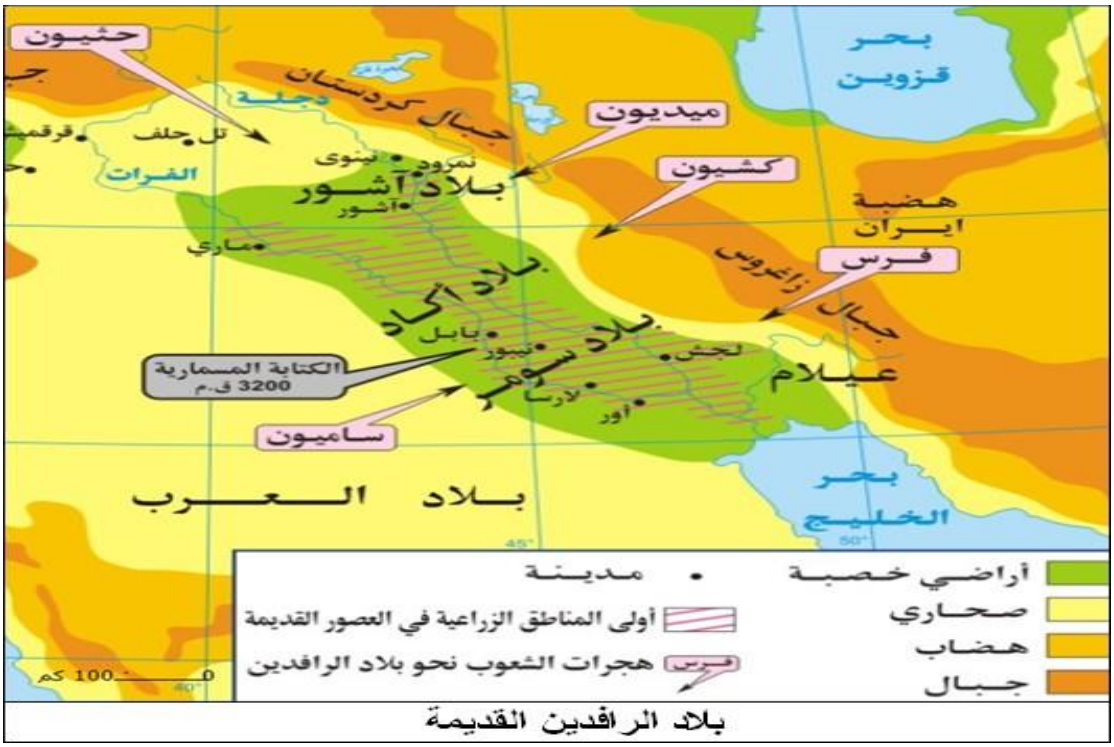

بلاد الرافدين القديمة

وقد احتلت هذه الجبال أهمية كبيرة في العراق كونها المصدر الرئيسي الذي تنبع منه جميع روافد نهر الدجلة وهي: الخابور والزاب الكبير والزاب الصغير والعظيم والديالي، حيث تمد هذه الروافد نهر الدجلة حوالي 70% من مياهه، وتجري هذه الروافد نحو الجنوب الغربي عابرة السلاسل الجبلية بصورة عمودية.

وتتخلل هذه المنطقة الجبلية وديان وسهول مثل: سهل شهرزور، سهل كركوك وسهل أربيل وسهل مخمور....، كما اشتهرت بزراعة الحبوب خاصة القمح والشعير، وقد ساعدت كثرة روافده كذلك بنمو أشجار

الفاكهة والحبوب في السهول والوديان، وانتشار الغابات على سفوح الجبال، وتكاثر الحشائش والنباتات الطبيعية الأخرى، ومن أكثر المناطق ملائمة لرعي الأغنام والماعز فيها.

2-**الهضبة الصحراوية**: تقع هذه الهضبة غربي العراق وتحتل أكثر من نصف مساحته الكلية (60%)، ويتراوح ارتفاعها في حدود 100-1000 مترا عن مستوى سطح البحر، وهي جزء متمم لبادية الشام، وتمتد إلى قلب الجزيرة العربية، بينما أراضيها فهي متموجة تقطعها مجموعة من الوديان الطولية، وتظهر فيها بعض التلال الصغيرة والكثبان الرملية، أما سطحها فينحدر من الغرب إلى الشرق وتنتهي بالسهل الرسوبي.

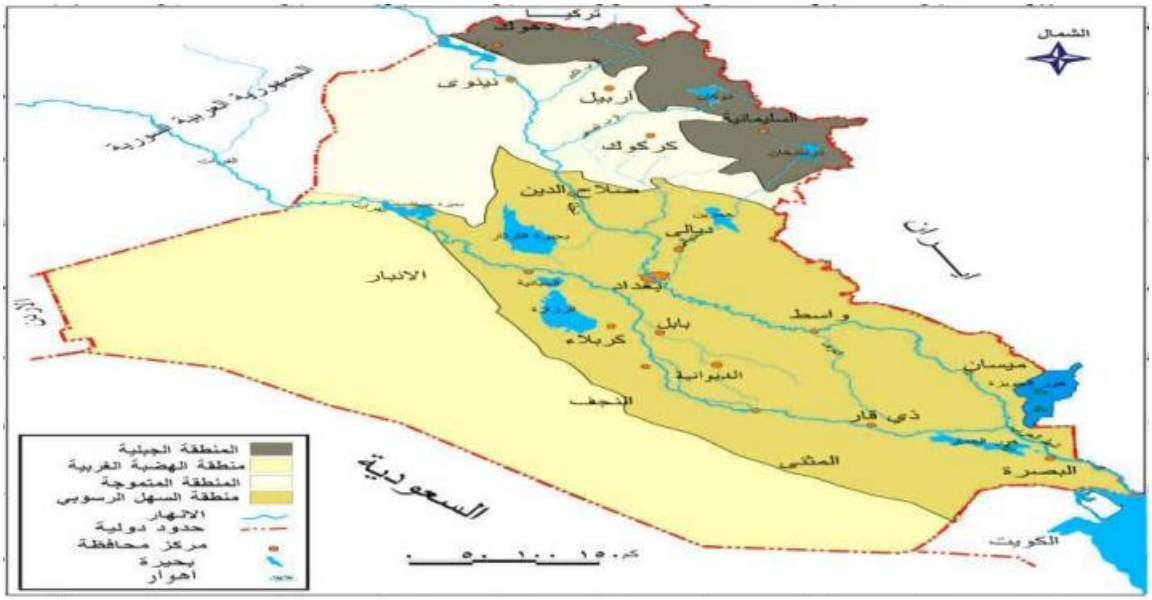

يمكن تقسيم هذه الهضبة إلى قسمين متمايزين وفقا لتباين الصخور والتربة والنبات الطبيعي وكميات الأمطار المتساقطة إلى:

- **هضبة الجزيرة**: تمتد ما بين جبال مكحول سنجار شمالا والسهل الرسوبي جنوبا ومجرى نهر الفرات والحدود السورية غربا وجبال حمرين شرقا، ويتكون سطح الجزيرة من أرض منبسطة تتخللها هضاب وروابي وكثبان رملية وبحيرات، وأودية وأكبر منخفضاتها هو الثرثار والذي يبلغ طوله 3000كلم ومعدل عرضه 45 كلم.
- **هضبة البادية الغربية**: تجاور هذه الهضبة مجرى نهر الفرات من الشرق وتشترك مع بادية الشام، وتمتد إلى داخل شبه الجزيرة العربية، كما يتخللها عدد من الأودية التي تجري فيها مياه الأمطار،وتنتهي هذه المنطقة بمنخفضات واسعة كمنخفض الحبانية وهور أبي ديس.

وتشير الأبحاث إلى أن هذه المنطقة تميزت بقلة أمطارها المتساقطة ممّا أدى إلى قلة المراعي بها، إضافة إلى ترتبها الرملية أو الكلسية والتي لم تساعد على نمو النباتات إلاّ في بعض الواحات.

3 – السهل الرسوبي: يعتبر السهل الرسوبي ثالث مظاهر السطح في العراق ويشغل حوالي خمس مساحة العراق ويمتد على شكل مستطيل من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بين مدينة تكريت على نهر دجلة ومدينة الرمادي (مدينة هيت) على الفرات من جهة الغرب، والبادية الجنوبية، والخليج العربي من جهة الجنوب.

ويبلغ طوله حوالي 650 كلم بينما يتراوح عرضه بين 45 و140 كلم ويخترقه نهرا الدجلة والفرات اللذين يسيران في أرض منخفضة لا يتجاوز ارتفاعها 32م عن سطح البحر، وقد ساعد ارتفاع وادي الفرات في القسم الشمالي من السهل في شق الجداول بشكل عكسي عند منطقة الكوت الناصرية، وساعد ذلك على نشوء المستوطنات الزراعية الكثيرة منذ العصر الحجري–المعدني.

4–الأنهار:

الدجلة: ينبع نهر الدجلة من جبال أرمينيا جنوب غرب بحيرة "وان" في آسيا الصغرى ، وبالتحديد من بحيرة هازار غولو HAZARGOLU ويتدفق نحو الجنوب والجنوب الشرقي محاذيا جبال طوروس ويدخل الأراضي العراقية عند بلدة فيشاخور، وله عدة روافد تلتقي مع بعضها لتكون بذلك المجرى الرئيسي للنهر، يبلغ طول هذا النهر قد بلغ 1718 كلم منها 1418 كيلو مترا داخل الحدود العراقية، والباقي منها في الحدود التركية والسورية، حيث يصب فيه عدة روافد رئيسية وأخرى فرعية أهمها: نهر الخابور عند بلدة فيشخابور، ثم نهر الزاب الكبير (الأعلى) الذي يصب في الدجلة على بعد 40 ميلا جنوبي نينوى، ثم الزاب الصغير (الأسفل) على بعد حوالي 80 ميلا جنوب الشرقاط، ومن هذه الروافد أيضا نهر العظيم الذي يلتقي بنهر الديالي الذي أطلق عليه البابليون تسمية "ترناه".

ويتميز نهر الدجلة بمجراه العميق والضيق وفيضاناته سريعة الانحدار والاندفاع، وهو ما أثر على موسم الفيضان الذي لا يستغرق عنده ثلاثة أشهر خلال فصل الربيع من كل عام، رغم قلة الاتساع الذي يتميز بها مقارنة نهر الفرات إلاّ أن سرعة جريانه جلبت معها الكثير الرواسب التي غمر الكثير من الأراضي، وفي بعض الأحيان شق مجاري جديدة.

نهر الفرات:

ورد اسم الفرات في النصوص المسمارية بمجموعة من العلامات تنطبق "بورانن" "Buranun"، ويرادف ذلك في الأكادية "بوراتي" "Purati" أو "بواتيوم"، ومنه الاسم بالعربية: فرات أي الرافد أو الماء العذب، وبذلك كان مصطلح الفرات مصطلح أو كلمة سومرية، في حين عرفها البابليون في لغتهم السامية تحت اسم "بورتم" أو "بوراتي" أي الفرات ولعل من الاسم البابلي اشتق منه العربي "الفرات" الذي يعني كلمة "فرع"، في حين يعتقد بعض الباحثون

أن تسمية الفرات هي تسمية قديمة تطلق على لغة الأقوام التي استوطنت السهل الرسوبي قبل السومريين، والذي يطلق عليهم عادة اسم "سكان الفرات الأوائل" أو "الفراتيون الأوائل"

تبلغ مساحة حوض الفرات حوالي 388 ألف كم^2، بينما قدر طوله بحوالي 2940 كم، وهذا يعني أن نهر الفرات يغمر مساحات أكبر من الأراضي، وهو ما جعله يتميز بقدرات أكبر في مجال الزراعة والملاحة والاتصال الحضاري بين مدن العراق القديمة.

وقد كان ينبع من السلاسل الجبلية في شرق الأناضول "جبال أرمينية" وعلى وجه التحديد من المناطق الواقعة شمال وغرب بحيرة «وان»، حيث يقطع بذلك الحدود التركية السورية عند مدينة طرابلس، ثم يلتقي بعد ذلك برافده «الساحور»، ومن هناك يتجه نحو الغرب ثم إلى الشرق حتى يدخل سهول سورية، ومنطقة الجزيرة وهناك يتصل بنهري الباليخ والخابور، غير انه قبل دخوله الأراضي العراقية يمر بعدّة مدن مثل: مدينة البوكمال، ومدينة ماري "تل الحريري" ومن ثم يدخل الأراضي العراقية عند قرية الحصبة، مع العلم أنه كان يقترب من نهر الدجلة في جنوب مدينة الفلوجة بقليل وبذلك يقع نحو 45% من مجموع الحوضين داخل العراق.

ويكوّن الفرات كنظيره الدجلة بحيرات ومستنقعات كثيرة على ضفتيه في قسمه الجنوبي، وذلك راجع إلى انخفاض مستوى الأراضي على ضفافه إضافة إلى زيادة كمية المياه أثناء الفضيان وملء الأتربة والرواسب في أسفل بعض الأودية، حيث تحول دون المجرى، فتنتشر المياه وتملأ المنخفضات الطبيعية

3-شط العرب:

يتكون هذا النهر من التقاء نهري الدجلة والفرات عند مصب كرمة علي، وقد كانا يلتقيان عند مدينة القرنة ليكونا شط العرب الذي يمتد حوالي 204كم ويتراوح عرضه بين 400 متر عند مدينة العشار إلى حوالي 1500 متر عند مصبه في الخليج، بينما يضيق عند البصرة إلى حوالي الكيلو متر الواحد.

ومجمل القول أن بلاد ما بين النهرين تتوفر على تنوع تضاريسي ومناخي هام، فضلا عن اتساع حوضي الدجلة والفرات ما جعلها محط أنظار الأقوام المجاورة من الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية، التي شكلت فيما بعد نسيجا بشريا للبلاد ومركزا للحياة السياسية البدائية والمنظمة، وقد حاولت هذه الهجرات تشييد حضارتها الأولى على ضفاف أنهارها وسهولها الرسوبية والجبلية منذ القدم، وتكوين القرى الزراعية البدائية تتلاءم والظروف الطبيعية، والتي سوف نحاول التطرق إليها في الفصل القادم .